العدد السابع والعشرون
1434 هـ / 2013 م

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكّمة - تصدر سنويًا

1434 هجرية 2013 ميلادية

- من أسس بناء الشخصية الإنسانية من منظور تربوي إسلامي.
- المجاهد أحمد الشريف السنوسي ودوره في حركة الجهاد الليبي.
- بعض معالم الثقافة المقاصدية للإمام عبد الملك الجويني.
- نصوص للمستشرقين أنصفوا فيها الإسلام.

المجاهد أحمد الشريف السنوسي ودوره في حركة الجهاد الليبي

د. محمد مسعود جبران
كلية الدعوة الإسلامية -ليبيا

لا جدال في أن المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسي علم من أعلام ليبيا، وعظيم من عظماء العالم الإسلامي في العصر الحديث، عرف بعلمه واستقامته، وتفانيه في خدمة الإسلام والمسلمين، إقراء وتدريساً، وتصنيفاً وتأليفاً، وجهاداً واحتساباً، وقد كان في الثلث الأول من القرن العشرين الذي انتهت إليه الزعامة فيه، وقيادة حركة الجهاد في الشق الشرقي من أرض ليبيا مضرب المثل في مناجزة المستعمرين الغزاة الذين أرادوا طمس الدين الإسلامي في القلوب، وإزالة اللغة العربية من اللسان، بل الهيمنة على أراضى الشعوب المسلمة ومقدراتها وثرواتها، فكان الرمز الديني الوطني في التصدي لحملاتهم الشرسة، ومحط أنظار العالمين: العربي، والإسلامي، بل محط أنظار العالم الغربي، والدول المستعمرة منه التي صارت تشكو طوال عهد الإمام السيد محمد المهدي السنوسي، وخلفه السيد أحمد الشريف السنوسي حركة الدعوة السنوسية الإسلامية، حيث كانوا يرون في حركاتها وتنظيماتها، وتشكيلاتها وامتداداتها أعظم الأخطار في مواجهة مطامعهم الاستعمارية، وأهدافهم التوسعية[1].

وقد لقي هذا الداعية المجاهد المحتسب الصابر من أهوال الحرب التي شّنها ضد الإيطاليين والإنجليز، وما انجرَّ عليه من ملابساتها ونتائجها الجسيمة من الأهوال العظام والأعباء الجسام، إلى أن أفضى به أمر إمارته السنوسية، ونوازل

(1) حاضر العالم الإسلامي 2: 162، المهدي السنوسي: 52.

الحروب السرية والمعلنة ضد الإيطاليين والإنجليز، إلى أن يهجر هذا المجاهد المخلص مكرهاً وطنه الغالي ليبيا، وينتهي به العنت إلى مهاجر في البلاد العربية والإسلامية.

ومن الكلمات الصادقات التي قيلت في تحلية هذا السري المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسي –رحمه الله تعالى– ما قاله معاصره، وأحد عارفيه الأمير شكيب أرسلان مثنياً على خلاله النفسية، وصفاته الأخلاقية: "رأيت في السيد حبراً جليلاً وسيدا غطريفاً، وأستاذاً كبيراً، من أنبل من وقع نظري عليهم مدة حياتي، جلالة قدر، وسراوة حال، ورجاحة عقل، وسجاحة خلق، وكرم مهزة، وسرعة فهم، وسداد رأي، وقوة حافظة، مع الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة والورع الشديد في غير رياء ولا سمعة"[1].

وقال الشيخ الطاهر الزاوي في وصفه وتحليته ضمن إعلاء دوره في سياق تآليفه: "السيد أحمد الشريف، صقله العلم، وهذبته العبادة، فعفَّت نفسه، وكبرت همته، وأخلص عمله لله، فتولى الله توفيقه، وأطلق ألسنة الناس بمدحه، والثناء عليه".

ترجمته :.

في الحق أن ترجمة المجاهد الشيخ أحمد محمد الشريف وسيرته ومسيرته حافلة بالحوادث والأحداث، ومليئة بالنوازل والملابسات، فهو –كما أسلفنا– رجل دعوة وجهاد، ومن أقطاب البذل والإصلاح، لذلك آثرت أن أتناول مسيرة حياته على النحو التالي:

بما أن حياته توزعت بين العيش والحياة داخل ليبيا وخارجها، فقد آثرت أن أتناول قسمها الأول في داخل ليبيا، من خلال هذه المحاور:–

1- ذكر أوليته ونسبه الشريف.

2- طور التكوين والإعداد ودراسته وشيوخه وملازمته عمه.

3- طور الدعوة والجهاد – خدمة الدعوة، وحرب إيطاليا والإنجليز.

---

(1) جهاد الأبطال " 187.

أما قسمها الآخر أعنى حياته في خارج ليبيا، فقد تناولت فيه:.

1-مقامه في تركيا.

2- مقامه في سوريا والشام.

3-مقامه في الحرمين الشريفين.

4-وفاته وصداها في العالم العربي والإسلامي.

5- آثاره القلمية.

أوَّليته ونسبه[1]:-

هو السيد أحمد بن السيد محمد الشريف ابن الإمام الكبير والمصلح الإسلامي الشهير: "محمد بن على بن السنوسي العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم ابن يوسف بن عبد الله بن خطاب بن على بن يحي بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس بن عبد القوى أحد أمراء تاقدمت وتلمسان بن عبد الرحمن مؤسس إمارة تاقدمت بن يوسف بن زيان، أحد ملوك المغرب الأقصى، بن زين العابدين، أحد أمراء تقادمت بن يوسف، عاشر ملوك الريف وباد يس بن حسن تاسع الملوك المذكورين، ابن إدريس، ثامن الملوك بن عبد الله بن أحمد، سابع الملوك بن محمد سادس الملوك ابن عبدا لله، خامس الملوك بن حمزة بن على، ثاني الملوك، ابن عمران أول ملوك الريف وباديس بن إدريس الأصغر أمير المسلمين ومؤسس مدينة فاس، ابن إدريس الأكبر أول خلفاء الأدارسة بالمغرب، بن عبدالله الكامل، بن حسن المثنى بن الإمام حسن السبط، أحد أولئك الذين تولوا الخلافة الإسلامية الكبرى، ابن رابع الخلفاء الراشدين على بن أبي طالب كرم الله وجهه، وفاطمة الزهراء بنت رسول البشرية، وباعث الإنسانية، وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم"[2].

(1) تراجع هذه الأولية والنسب في الكتب الآتية: الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، تأليف الإمام محمد بن على السنوسي، "السنوسي الكبير تأليف الطيب الأشهب.

(2) السنوسي الكبير عرض وتحليل لدعامة حركة الإصلاح السنوسى.

وهذا هو نسب مترجمنا السيد أحمد الشريف السنوسي الخطابي .كما أثبته الأستاذ محمد الطيب بن إدريس الأشهب في كتابه المجعول لترجمة جدّ مترجمنا محمد بن علي السنوسي العالم المصلح، أما نسبته "الخطابي" فهي راجعة إلى نسبة أجداده في المغرب الأوسط "إلى الخطاب" من قبيلة "مجاهر" القاطنة بقريمن مستغانم بالجزائر[1] فيقال له ولسلفه ولخلفه، الخطابيين.

حياته في ليبيا:

1- طور التكوين والإعداد:

بعد أن تحدثنا عن أولية الشيخ أحمد الشريف السنوسي ونسبه، نتحدث الآن عن ولادته ونشأته وتكوينه وإعداده.

ولد مترجمنا في الحرم السنوسي الآمن الذي اختاره جده العلامة المصلح الشيخ محمد بن علي السنوسي[2] لحياته المهددّة بالاستعمار الفرنسي، ولدعوته السنوسية الآخذة في الانتشار والظهور، أعني حرم مدينة الجغبوب[3] من أراضي طرابلس الغرب كما كانت تسمى عهدئذ، أي أراضي ليبيا الحالية، الواقعة جنوبي شرق ليبيا، بالقرب من الأراضي المصرية والسودانية، وذلك في تاريخ اختلفت المصادر والمراجع على اعتماده، إذ منها من يقرر أنه كان في سنة (1284هـ/1867م)[4] ومنها من يقرّر غير ذلك[5]، ويذهب بعضها الآخر وهو الأقرب إلى الدقة والضبط أن هذا

(1) حاضر العالم الإسلامي 2: 140.

(2) تقدّمت ترجمة هذا الإمام المصلح في ترجمة شيخ الشهداء ضمن كتابنا " أعلام من ليبيا في القديم والحديث"، ومن أراد التوسع فيها فليراجع: كتاب "حاضر العالم الإسلامي" تعليقات الأمير شكيب أرسلان الجزء الثاني، كتاب " السنوسي الكبير" لمحمد الطيب الأشهب، كتاب " تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا " برقة العربية " لمحمد الطيب الأشهب : 133.

(3) قال الشيخ الزاوي في "معجم البلدان الليبية" ص103 : " واحة صغيرة تقع إلى الجنوب من طبرق بنحو 28 كم، وتقع على حدود سيوة الغربية، وتحيط بها صحراء قاحلة قاتلة من الشمال والغرب والجنوب على مسافة 280 كم من الشمال ونحو 700 كم من الغرب، وتمتد في الجنوب إلى الكفرة، وقد عثر على مقابر كثيرة مما يدل على أنها كانت مسكونة في العهد الرومي وقبلة.

(4) دليل المؤلفين العرب الليبيين : 71.

(5) برقة العربية : 249، 250.

الميلاد إنما تمّ بتاريخ 27 من شوال سنة 1290هـ، الموافق لسنة 1873م[1] في بيت والده السيد محمد الشريف السنوسي[2] حيث حفظ –على عادة أهل ليبيا عهدئذ في تعليم أولادهم–كتاب الله تعالى، ونشأ منذ نعومة أظفاره مكنوفاً في طفولته المبكرة والمتأخرة بالرعاية التامة من والده الشيخ العالم محمد الشريف السنوسي[3] ومن عمه العالم محمد المهدي السنوسي[4]، فأخذ أوليات العلوم، وتدرج في مراقيها بعلوّ سنه في الجغبوب أولا ثم في زاوية التاج على يد عمه، وشيوخ العلم في الزاويتين السنوسيتين المذكورتين، كما تلقى عنهم أيضاً أصول الطريقة الصوفية السنوسية ومبادئها، وطرائقها في الذكر والسلوك إلى أن غدا في شبابه متضلعاً من العلم، متشبعاً بالتهذيب الصوفي والإيماني.

شيوخــه:

من إكرام الله لمترجمنا أن أنزله بقضائه في المنزل الحسن من هذه الأولية المباركة وفى هذا الوسط الأسري السنوسي المعروف – عبر التاريخ – بالتدين والتصوف والعلم والصلاح والإصلاح، فكان من الطبيعي أن يتكون في طور التكوين والإعداد بحب الإيمان والعقيدة، والعلم الظاهري والباطني الذي كان يهيمن على بيته وعلى زاوية جده وشيوخها العلماء، ومكتبتها الحافلة في زاويتي الجغبوب والتاج في الكفرة التي رحل إليها مع عمه فيما بعد.

وقد كان من أهم شيوخه الذين أخذ عنهم العلم، وأصول الطريقة السنوسية الصوفية والمعارف الشرعية واللغوية:–

(1) تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا : 333.

(2) من إخوة السيد أحمد الشريف وأشقائه : محمد عابد بن السيد محمد الشريف وعلى الخطابي ومحمد هلال ومحمد صفى الدين ، يراجع كتاب " برقة العربية" : 249.

(3) تراجع ترجمته في كتاب " برقة العربية " : 228.

(4) يراجع كتاب "المهدي السنوسي" تأليف محمد الطيب الأشهب وكتابة " السنوسية دين ودولة " للدكتور محمد فؤاد شكري وكتاب ميلاد دولة ليبيا الحديثة " للمؤلف المذكور ، وتاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا للدكتور علي محمد الصلابي.

1-والده السيد محمد الشريف بن السيد محمد بن علي السنوسي[1].

وقد كان من العلماء الصلحاء، أخذ العلم عن والده العلامة المصلح محمد بن على السنوسي، كما أخذ عن تلاميذه وإخوانه دولاً من العلوم اللغوية والدينية وأجيز منهم، ثم تصدر للتدريس والإقراء في زاوية والده "الجغبوب" قال تلميذه السيد أحمد بن إدريس الأشهب، واصفاً أُستاذية والد مترجمنا ومبلغه من العلم: ((كنا نحضر على السيد الشريف، وكنا من ندرس عنه الحديث والتفسير والتصوف، ومطولات كتب اللغة، يجلس بكل تواضع، ويضع الكراس الذي بيده فوق منضدة من الخشب توضع أمامه، ويقرر ما نحن بصدده، وعندما يمر بمشكلة فقهية أو تاريخيه أو لغوية، يسرد لنا ﷺ من ذاكرته جميع وجوهها، وما ورد فيها من أقوال العلماء أو الأئمة المصنفين بأسلوب عذب ساحر خلاّب، ولا يترك قولاً ورد فيها إلا ويأتي به، ثم يوضح الأصحّ من الأقوال، والمتفق عليه، وعندما نقف على أي بيت من الشعر في أي كتاب نقرؤه، أو أي موضوع نتناوله، يقول لنا: إن هذا البيت من قول فلان المولود سنة كذا، والمتوفى سنة كذا، ويبتدي في قراءة القصيدة من ذاكرته إلى أن يقف على البيت الذي كان السبب في إعلامنا بقوة حافظة سيدنا، وسلامة ذاكرته))[2].

2- محمد المهدي السنوسي[3]:

وهو ابن العلامة المصلح الشيخ محمد بن علي السنوسي، الذي أخذ العلم عن والده، وعن كبار الشيوخ من تلاميذه وأصحابه القارين والطارئين وكان من العلماء والصلحاء، ورجال الدعوة والإصلاح الذين نهضوا بدور بارز في خدمة الإسلام والمسلمين، وحتى خشيت الدولة الأوربية من حركته[4]، وقد أخذ مترجمنا

(1) تراجع ترجمته في كتاب " برقة العربية " : 228.
(2) السنوسي الكبير: 47، تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا : 205.
(3) تراجع في أخباره وآثاره المصادر والمراجع المذكورة سلفاً .
(4) برقة العربية : 253.

السيد أحمد الشريف عن عمه هذا علومه وطرائقه في الدعوة والجهاد، قال الأستاذ الطيب الأشهب ((وكان السيد أحمد الشريف يلازم عمه في جميع الأوقات وصاحبه في تنقلاته من الجغبوب إلى الكفرة ، ثم إلى السودان))[1].

وكان أحمد الشريف يبالغ في تقدير مقام عمّه هذا الذي تولى تربيته ورعايته حتى ((لا يرى فوق طبقته أحداً إلاّسيدّ الكائنات ﷺ))[2] وقد وصفه في كتابه الدر الفريد الوهاج بقوله: ((مولاي وعمّي من يهدم به الله كل مرتد سيدي محمد المهدي، آمين الله، وخليفته، ونوره المستمد من خير البريةّ))[3].

3– عمران بن بركة الفيتوري[4]:

وهو جدّ مترجمنا لأمه، وعدّ في عداد شيوخه الذين تكون بهم في طور الإعداد والتكوين، قال الأستاذ الطيب الأشهب –رحمه الله – في ترجمته الوجيزة له: "من بلدة زليتن، تعرّف على السيدّ الإمام سنة 1257هـ، ولحق به في الزاوية البيضاء سنة 1258هـ، حيث أتم تحصيله العالي تلميذاً للإمام، ومن بين الأعمال التي أسندت إليه مشيحة الزاوية البيضاء كما قام بالتدريس فيها، وفي معهد الجغبوب، وكان أيضاً مدرساً للإمام السيد المهدي ﷺ".....توفاه الله بالجغبوب سنة 1310هـ، ورثاه الكثير من شعراء الإخوان"[5].

5– محمد مصطفي المدني:

وهو ابن حامد، يرجع بأصله إلى مدينة تلمسان بالجزائر، وقد التحق هو الآخر بمؤسس الطريقة السنوسية الإمام محمد بن علي السنوسي جدّ مترجمنا، مع زميله الشيخ أحمد عبد القادر الريفي في الحجاز سنة (1267هـ 1850م)[6] وأخذ

---

(1) م .ن.

(2) حاضر العالم الإسلامي 2: 160.

(3) الدر الفريد ا الدهاج ك الورقة 2.

(4) من أعيان زليتن وعلمائها، تراجع أخباره في : كتاب " المهدي السنوسي 28 : برقة العربية : 144، السنوسي الكبير : 60.

(5) برقة العربية : 144، السنوسي الكبير : 60.

(6) م . ن : 65 السنوسى الكبير : 65.

العلم عنه ثم التحق به في زاوية الجغبوب حيث أخذ عنه العلم طلابها، ومنهم السيدّ أحمد الشريف السنوسي، وقد توفي هذا الشيخ أثناء توليه مشيخة زاوية تازربو[1] جنوب ليبيا.

أحمد الريفي:

هو العلامة الجليل والبركة الصالح، والمربي الفاضل السيد أحمد بن عبد القادر الريفي))[2]، أصله – كما ذُكِر– من مدينة تلمسان بالجزائر، وقد كانت صلته بالإمام محمد بن علي السنوسي جدّ مترجمنا في الحجاز سنة (1267هـ 1850م) حيث أخذ عنه بعض علومه ولازمه بعد ذلك، ثم اختاره ليكون شيخاً لولديه محمد المهدي، ومحمد الشريف[3]، بل أدركه حفيده السيد أحمد الشريف وأخذ عنه أيضاً بعض علومه في زاوية الجغبوب والكفرة[4] وكان أحمد الشريف يقول في حقّ أستاذه هذا إنه ((كان علامة بحراً في جميع العلوم، قرأ في فاس، وأتقن العلوم بأسرها حتى الفلك والإسطرلاب والهندسة والرياضيات))[5] قال الأمير شكيب في أعجاب مترجمنا بشيخه هذا ((وهو يعتمد على كلامه له، ومن جملة ذلك أنه قبل وفاته –رحمه الله– بأيام، قال له: أمامكم جهاد طويل عريض، فينبغي لك أن تجاهد، ولا تقعد، وأن الجهاد سينتهي بنصركم))[6].

وقد حسب مترجمنا أن شيخه يعنى بهذا الجهاد ما كان موجهاً ضد فرنسا في أفريقيا، فأخبره شيخه بأن الجهاد ما سوف يأتي عن طريق البحر، أي غزو إيطاليا لليبيا وربما الجهاد ضد بريطانيا في مصر وأخبره بأن تركيا سوف تدعم هذا الجهاد.

---

(1) برقة العربية : 146 ، السنوسي الكبير : 60.
(2) برقة العربية : 169 ، السنوسي الكبير : 65 .
(3) حاضر العالم الإسلامي 2 : 160.
(4) م .ن : 169.
(5) برقة العربية : 169- 170.
(6) حاضر العالم الإسلامي 2 : 142- 144.

وقد انتقل الشيخ أحمد الريفي مع السيد محمد المهدي السنوسي إلى زاوية التاج بالكفرة، حيث توفي عام (1329هـ 1911م)[1].

2- طور الدعوة والجهاد:

أدرك قائد الحركة السنوسية وزعيمها الثاني الشيخ محمد المهدي السنوسي بفراسته، ومن ظروف حياته الخاصة أن مدة هذه الحياة باتت محدودة وقليلة، وأن الدعوة السنوسية صارت مهددة بشتى الأخطار والمؤامرات وبخاصة من الخارج[2]، فعمد إلى أكبر أبناء أخيه السيد محمد الشريف مترجمنا السيد أحمد الشريف، يأخذه بطرائق التعليم والتهذيب، ويرتقى به في سلمّ التوجيه والكمالات ويشعره بالمخاطر التي تحوق بالدعوة السنوسية في داخل ليبيا وفي الدول الأفريقية المجاورة، التي كانت تعمل الدول الأوربية على غزوها واحتلالها، لقد حرص السيدّ محمد المهدي على إعداد ابن أخيه على هذا النحو والإعلاء في المرحلة التي أحسّ فيها بدنوّ أجله ليكون خليفته الفعلي بعد وفاته، في قيادة الحركة الإسلامية وتوجهاتها الدعوية والسياسية التي أسس جده الإمام هذه الحركة عليها، فكان السيد أحمد الشريف – كما قرر مؤرخ الحركة الأستاذ الطيب الأشهب –كما أسلفنا– "يلازم عمه في جميع الأوقات، وصاحبه في تنقلاته من الجغبوب إلى الكفرة، ثم إلى السودان..... وبقي السيد أحمد الشريف بالكفرة بعد وصوله إليها مع عمه، يتولىّ الكثير من الأعمال الخصوصية والعمومية بأمر وإرشادات عمه، ويتلقى عنه العلوم"[3].

ويخبرنا تاريخ الحركة السنوسية كما تخبرنا ترجمة السيدّ أحمد الشريف بأن مترجمنا قد أنس كثيراً بهذه العيش تحت كنف عمه المجاهد الذي تولى رعايته منذ بلوغه السن السادسة من عمره، وظل بعد ذلك تحت عنايته وتوجيهه في الجغبوب والكفرة وهو في طور التوجيه والتكوين، إلى أن بلغه نعي والده السيد محمد الشريف

(1) برقة العربية : 169.
(2) المرجع السابق : 169.
(3) المرجع السابق: 250.

في مدينة الجغبوب[1]، ثم لم يبق طويلاً حتى فوجئ بموت عمه وراعيه السيد محمد المهدي، فكان في ذلك كلّه ما ملأ جوانحه بالهم والألم، وأسكن في أعماقه الأسى والغم، ولكنه سرعان ما أفاق واسترجع، واستشعر المسؤوليات الجسام فيما ألقى على عاتقه من واجبات الدعوة والجهاد ومسؤوليات الحفاظ على زوايا الحركة السنوسية في ليبيا والبلاد العربية والأفريقية، وتوجهاتها الدينية والدنيوية وهي المهمة التي رشحه لها عمه السيد محمد المهدي السنوسي.

كان مترجمنا السيد أحمد محمد الشريف السنوسي حينما آلت إليه المسؤوليات والصلاحيات في القيام بالدعوة السنوسية بعد وفاة عمه وراعيه المجاهد السيد محمد المهدي السنوسي عام (1320هـ 1902م)[2] رجلاً متماسكاً لما يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره[3] وهو – كما وصفه الأمير شكيب أرسلان– بعد ذلك: "رائع المنظر، بهي الطلعة، عبل الجسم، قوى البنية، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يجلّه ويحترمه"[4].

وقد خفَّ منذ أن اختاره مجلس الإخوان السنوسيين لتوليهذه القيادة السنوسية خلفاً لعمه، ونهض سريعاً –بفضل حسن إعداده العلمي، والدعوي، وتكوينه النفسي بالأعباء الجسام ومهام الدعوة العظام– في شؤون الحرب والسلام، والتي يمكن حصرها وضبطها في القضايا والمسائل التالية:

1- تولى المسؤوليات في القيام بأمر الدعوة السنوسية والنظر في الطرائق العملية لتسيير الزوايا ورعاية الأوقاف السنوسية الكثيرة في داخل ليبيا وخارجها، باعتباره خليفة عمه والقائد الأعلى بعده، وهي النعوت التي تفرض عليه مواجهة التبعات والعقابيل التي نجمت عن الحرب ضد فرنسا في أفريقيا.

---

(1) برقة العربية : 253.

(2) المهدي السنوسي : ميلاد دولة ليبيا الحديثة 1: 86- 88.

(3) على خلاف ما قرره، وذهب إليه الدكتور محمد فؤاد من أن سن أحمد الشريف كانت وقتذاك 29 عاما، راجع ذلك في كتاب المهدي السنوسي : 70، حاضر العالم الإسلامي 2: 144.

(4) حاضر العالم الإسلامي 2 : 164- 165.

2- تنظيم إدارة الحرب في ليبيا ضد الغزو الإيطالي لليبيا، وعلى وجه الخصوص في الشق الشرقي فيها بعد سنة (1329هـ/1911م).
3- النظر بل المشاركة مع التنظيمات المخصوصة التركية في محاربة الإنجليز على الأراضي المصرية بعد سنة (1344هـ/1915م).
4- حسْمُ التنازل عن القيادة السنوسية للأمير محمد إدريس السنوسي، والخروج اختياراً أو اضطراراً من أرض الوطن ليبيا حتى يفسح المجال لاستمرار بقاء الحركة السنوسية.

وتلك هي المسؤوليات الرئيسة، والأعباء الأساسية التي كان على السيد أحمد الشريف مجابهتها والقيام بها بعد توليه قيادة الحركة السنوسية عقب وفاة عمه السيد محمد المهدي، عام (1320هـ/1902م) وهي –كما ترى– مسؤوليات ضخمة ومهام جسام كما سنوضح ذلك في هذا المسرد التاريخي الذي نعرض من خلاله الجهود الجهادية العلمية لهذا الداعية الكثير من المتاعب والعذابات، وقد حسب عليه هذا الجهاد من الدول المستعمرة، وحوسب من أجله فهجر خارج وطنه ليبيا، بل عملت هاتان الدولتان الاستعماريتان فرنسا وإنجلترا على متابعته، والتضييق عليه في مهجره وبخاصة في سوريا والقدس من بلاد الشام كما سنوضح.

ومن الإنصاف لهذا المجاهد والقائد السنوسي الغطريف، السيد أحمد الشريف أن نذكر له في هذه الترجمة المختصرة هذا الدور الجهادي المشرف ضد الدول المستعمرة فرنسا وإيطاليا وإنجلترا على وجه الإجمال والإيجاز.

حربه ضد فرنسا:

لقد تزامن الطور الأخير من حياة السيد محمد المهدي السنوسي قائد الحركة السنوسية الإسلامية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والذي كان خلاله الشيخ أحمد الشريف السنوسي مرافقاً لعمه محمد المهدي فيه مع الحركة الدعوية السنوسية وامتداداتها في ليبيا وبعض الدول الأفريقية المجاورة مثل النيجر وتشاد والدول الأخرى القريبة مثل الكمرون ونيجيريا وغيرها، وهو الشأن الذي لفت نظر

الدول الأوربية المستعمرة، بل أزعجها، وأقلق مهادها وحملها على أن تجأر بالشكوى من الإمام المهدي وطموحاته المتضاربة مع تطلعات تلك الدول الأوربية المستعمرة، قال الأمير شكيب أرسلان: ((وكان الأوربيون في عهد السلطان عبدالحميد يشكون إلى السلطان حركة السنوسي، ويتوجسون خيفة من تشكيلاته وحركاته، ويرون فيه أعظم خصم للدعوة الأوربية في أفريقية وطالما ضغطت دول أوربا على السلطان لأجل أن يستدعي السيد المهدي إلى الأستانة، ويأمره بالإقامة بها، ولا يأذن له بالعودة إلى وطنه ليخلو للأوربيين الجو في تقسيم أواسط إفريقية، وخضد الشوكة الإسلامية في تلك الديار، فكان السلطان يماطل هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بصنوف الاعتذار))[1].

إن هذا الخبر الذي تفرد بسوقه الأمير شكيب أرسلان هو وحده ما يفسر لنا سرعة الإمام محمد المهدي في القيام بتلك الهجرة القسرية التي خرج بها مع أنصاره من واحة الجغبوب إلى منطقة التاج في الكفرة في أواخر جمادى الآخرة (1317هـ/1899م) والتي صحبه فيها مترجمنا السيد أحمد الشريف، كما صحبه فيها بعد ذلك في رحلته إلى منطقة "قرو" في تشاد؛ ليبعد بهذه الهجرة عن مناطق النفوذ الأوربية الموجودة في مصر وغيرها، ويتوغل في تلك الصحاري التي حسب فيها نجاته ونجاة الدعوة السنوسية من ذلك المد الاستعماري الكاسح، والذي لم يسلم منه في أثناء هذه الهجرة القسرية التي استهدف خلالها المهدي، كما استهدف أتباعه بحرب شعواء ضارية مع القوات الفرنسية في (علالي) وغيرها من أراضي تشاد، والتي مرض خلالها السيد المهدي وتوفي في يوم الأحد 24 صفر 1320هـ الموافق 2 يونيو 1902م، فكان لوفاته وقع أليم على نفوس المجاهدين المسلمين وعلى نفسية مترجمنا أحمد الشريف الذي كان يعد عمه أكبر سندٍ وموجهٍ.

إن الذي نريد توكيده في هذا المقام اللفت إلى الدور الخطير الخفي الذي نهض به السيد أحمد الشريف في قيادة المجاهدين وتوجيههم وقيادتهم في أثناء أو

(1) حاضر العالم الإسلامي 2: 162.

آخر حياة عمه السيد المهدي، في أثناء مرضه وبعد وفاته خلال المعارك الحامية ضد القوات الفرنسية، فقد كان السيد أحمد الشريف يقود ويوجه قادة المجاهدين ، والجيش السنوسي قيادة فعلية، بتوجيه عمه الذي كان في أشد حالات مرض موته، كما أنه تولى مسؤولية عقابيل هذه الحرب بعد وفاته، والتي اضطر السيد أحمد الشريف وقياداته فيها إلى العودة الاضطرارية إلى أراضي ليبيا، وقد كان من هذه القيادات الفاعلة السيد عمر المختار ومحمد عبد الله السني، والبراني الساعدي، وغيرهم.

وقد كان من المسؤوليات التي كان على الشيخ أحمد الشريف أن ينهض بأعبائها بعد مبايعته عقب وفاة عمه، وتوليه قيادة حركة الدعوة السنوسية، النظر في الطرائق العملية لتسيير برامج هذه الدعوة، والإشراف الفعلي على زواياها وأملاكها وأوقافها الكثيرة وخاصة في ليبيا[1]، والمضي في القيام بمسؤولياتها المعروفة[2] فكان من برنامجه في ذلك إقراره بالإبقاء على مجلس الإخوان السنوسيين الذي كان على عهد عمه السيد المهدي، وتسمية أعضاء جدد عوضا عن الإخوان الذين استشهدوا في معارك تشاد. كما كان من أبرز المسؤوليات التي تولاها بعد ذلك الإشراف على شبكة الزوايا السنوسية المنتشرة في برقة وفي البيضاء والجغبوب والكفرة وفزان، وفي طرابلس وفي الجبل الغربي وفي القصبات، وفي خارج ليبيا في الزوايا السنوسية المنتشرة في مصر والحجاز والسودان، وقد بلغ مجموع هذه الزوايا (45) زاوية في برقة و(31) وإحدى وثلاثين زاوية تمتد على الطريق من السلوم حتى مشارف الإسكندرية (العامرية) ، وفي منطقة طرابلس (18) زاوية، وفي فزان (15) زاوية، وفي الكفرة (6) ست زوايا، وفي السودان (14) زاوية، وفي الحجاز (17) زاوية))[3].

(1) راجع أسماء هذه الزوايا السنوسية وشيوخها وأخبارها في: (السنوسي الكبير) : 33-41، والمهدي السنوسي.
(2) انظر نفس المصدر السابق.
(3) حاضر العالم الإسلامي 2: 86-88، حوليات كلية الآداب- جامعة الكويت: 7-8.

ولقد كانت لهذه الزوايا السنوسية الكثيرة والمنتشرة في البلدان المذكورة عدة مهام تعليمية ودينية وسياسية وإصلاحية تقوم بها تجاه مجتمعاتها، فهي معاهد علم، ومعابد عبادة وتدين، ومجالس للشورى والنظر في قضايا الإسلام والمسلمين، وما يراد لهم من الدول المستعمرة الباغية.

وقد مَّر بنا أن لهذه الزوايا ذات المهام العلمية والدينية والتجارية المتعددة شيوخاً يقومون بها، ويرعون برامجها، وينهضون بالمهام المنتظرة منهم، وأن هؤلاء الشيوخ يعينهم القائد السنوسي الأعلى، وهو ما نهض به الشيخ أحمد الشريف منذ تعيينه، فأبقى بعض ما اختاره وعينه عمه، كما عين بعد ذلك بعضهم الآخر[1].

ومن الغريب أن الشيخ الطاهر الزاوي لم يتوقف كثيراً – مع إنصافه الكبير للشيخ أحمد الشريف– للحديث عن هذا الدور الجهادي الفعال لأحمد الشريف في المشاركة ضمن حرب الليبيين ضد الاستعمار الفرنسي، جنوبي ليبيا[2]، كما لم يتوقف كثيراً في بيان دوره الفعلي في حرب الليبيين مع الأتراك ضد الاستعمار الإنجليزي في مصر[3] إذ لا خلاف بين الكثير من المؤرخين، ومترجمي السيد أحمد الشريف في أنه قد أبلى في تينك الحربين بلاء حسن.

حربه ضد إيطاليا:

ولم يمض طويل وقت على تولي السيد أحمد الشريف السنوسي لأمر القيادة السنوسية وحركتها بعد وفاة عمه حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام العدو الأوربي الإيطالي المستعمر ومجابهة جيوشه الجرارة التي كان شيخه أحمد الريفي قد تنبأ بها وأخبره بمجيئها من جهة البحر للبلاد الليبية؛ إذ بعد مضي تسع سنوات على توليه مهمة قيادة الحركة السنوسية ودعوتها، هاجم الأسطول الإيطالي في سنة (1329هـ/1911م) الأراضي الليبية، فكان لأحمد الشريف دوره البارز والإيجابي في إحمائها، وتوجيهها والإشراف عليها[4]، وقد ذهب الشيخ الطاهر الزاوي–رحمه الله–

(1) (2)(3) يراجع كتاب (المهدي السنوسي) وكتاب (برقة العربية) للطيب الأشهب وكتاب (تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا) للدكتور على محمد الصلابي.

(4) ميلاد دولة ليبيا الحديثة 224/1، حوليات كلية الآداب جامعة كويت، الحولية الأولى، 1980/1399.

إلى القول والتأكيد بأن أحمد الشريف وحده الذي كان له شرف المشاركة الفعلية في الحرب ضد إيطاليا دون غيره من أهل بيته الذين اكتفوا إما بالفرار إلى الخارج أو الدخول في المفاوضات، والمناورات السياسية حسب رواية الشيخ الزاوي الذي قال: ((ولولا جهاد السيد أحمد الشريف، ومن انضم إليه من سكان برقة لما كان للسنوسيين أثر في جهاد ليبيا مع الطليان، وكل ما ينسب إلى السنوسيين في الجهاد الليبي الإيطالي؛ فإنما ينسب إليهم من طريقه وحده، إلا ما كان لأخيه صفي الدين من تحركات، ولكنها كانت غير موفقة)[1]، بل أشار الزاوي إلى أن إخوته الثلاثة أنفسهم، وهم الخطاب ومحمد العابد وهلال ((وإن كانوا إخوة السيد أحمد الشريف إلا أنه بريء من أعمالهم، فهو نسيج وحده –رحمه الله[2] كما أدان الشيخ الطاهر الزاوي أيضاً أبناء السيد المهدي السنوسي[3] وبرهن في مواضع من كتبه على تقصيرهم وتخاذلهم[4].

ومن النصفة، وبيان الحق التأريخي الذي لا ينكر ولا يجحد لهذا العلم الليبي، ما ذكره الشيخ الطاهر أحمد الزاوي في إظهار الدور الحقيقي والفعلي له في سياق ملحمة الحرب الليبية الإيطالية، والذي لا يحسب له وحده، بل يحتسب في سياق التاريخ الليبي لحركة الدعوة السنوسية بعامة.

فقد كان السيد أحمد الشريف ابن بجدة هذه الحرب الضروس، وفارساً من فرسان حلبتها المغاوير الأبطال، عرف بموقفه الصريح منها ومن الغزاة الإيطاليين منذ لحظاتها الأولى فخاضها امتثالاً لأمر الله في مقاتلة أعدائه، وامتثالاً لأمر شيخه أحمد الريفي الذي أظهره على حدوثها، ودعاه إلى المشاركة في عثير معاركها، فجمع المجاهدين ومجلس الإخوان السنوسيين ودعا العلماء والأعيان، ودعاهم جميعاً إلى الجهاد منذ أن دكت أساطيل الإيطاليين طرابلس الغرب واستنفر تلك الزوايا

(1) عمر المختار الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطني في ليبيا: 58.
(2) م.ن: 59/58.
(3) مثل كتاب (جهاد الأبطال) وكتاب (عمر المختار) وكتاب (أعلام ليبيا).
(4) مثل كتاب (جهاد الأبطال) وكتاب (عمر المختار) وكتاب (أعلام ليبيا).

السنوسية وشيوخها وطلابها، لشرف الجهاد، وقال كلمته المشهورة(والله نحاربهم ولو وحدي بعصاي هذه)[1].

ولم يكتف مترجمنا بالصدع بهذه الكلمة الحماسية الدالة على صدقه في المشاركة في الجهاد، بل أصدر أوامره وتوجيهاته وإبلاغاته إلى جميع شيوخ الزوايا السنوسية في مختلف أرجاء ليبيا بالاستعداد للجهاد، وأخذ الأهبة والاستعداد للدخول في المعارك الحامية ضد الإيطاليين الغزاة، وإعداد كتائب المجاهدين وسراياهم (الأدوار) لمجابهة هذا المستعمر الغازي دون مراعاة للفارق المادي والتقني الرهيب بين الطرفين العسكريين، وأخذ هذا القائد المجاهد ومن معه من القادة في هذه التعبئة الروحية والدينية، وخاضوا المعارك العنيفة ضد الغزاة ليس في برقة والجبل الأخضر من شرق ليبيا فحسب بل في المناطق الغربية التابعة لتنظيم الحركة السنوسية التي كان يقودها، ويشرف عليها السيد أحمد الشريف نفسه، ((فقد كان صدور الدعوة إلى الجهاد من زعيم الحركة السنوسية أحمد الشريف بمثابة الشرارة التي أوقدت النار في طول البلاد وعرضها، فخف المجاهدون من أقاصي طرابلس وفزان، ثم من النيجر، وتشاد لمؤازرة إخوانهم المجاهدين في الجبل والغرب))[2].

وقد اشترك مترجمنا في بعض المعارك ضد القوات الإيطالية اشتراكاً فعلياً بنفسه مثل المعركة التي جرت في برقة، وخاضها معه من الشام نجيب بك الحوراني، ابن الشيخ سعد العلي[3] وغيرها.

كما أوكل الأشراف الفعلي على معارك أخرى إلى بعض قياداته الصادقة مثل شيخ المجاهدين عمر المختار الذي اعتمد عليه اعتماداً كبيراً[4] ولكنه في جميع أحوال هذه المعارك التي خاضها المجاهدون في الجبل الأخضر وبرقة كان يشرف على

(1) الفوائد الجلية 1:23، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا: 243. وقد كتب في الأصل بعصاتي هذه، والصواب ما أثبتناه.

(2) جهاد الأبطال: 187.

(3) حاضر العالم الإسلامي 2: 160-161.

(4) يراجع الفصل الذي كتبناه في كتابنا: «أعلام من ليبيا في القديم والحديث» عن المجاهد الكبير عمر المختار.

مجرياتها، بالدعم بالمجاهدين من الزوايا السنوسية المختلفة، التي كانت تسهم بالإمداد العسكري والمادي والتمويني، كما كانت تسهم أيضاً بما يحتاجه المجاهدون من السلاح والمؤن والعتاد، وتقوم بالإشراف الفعلي على الأهل والسكان في مختلف القرى والقبائل والأراضي المترامية.

وقد كان من المهام الإيجابية الفاعلة التي نهض بها السيد أحمد الشريف أيضاً في سياق الحرب الليبية الإيطالية كتابة الرسائل إلى الشخصيات النافذة في الداخل والخارج يعرفهم بالانتصارات والانكسارات، ومجريات الحرب الطاحنة وما يتعرض له أهالي الوطن والمجاهدون من الخصاصة والحاجة وشدة الفقر، وما يرجونه من أصحاب الضمائر من مساعدة وعون، فقد كان السيد أحمد الشريف-كما وصفه الأمير شكيب أرسلان: (سريع الخاطر سيال القلم، لا يمل الكتابة أصلاً)[1].

حربه ضد إنجلترا:

كانت هذه الحرب التي تهّيب الشيخ أحمد الشريف الدخول فيها،والمشاركة في وقائعها، بل أُجبر على خوضها إجباراً هي من مخططات الألمان في الحرب العالمية الأولى التي نفذتها منظمة تشكيلات مخصوصة التركية لأشغال الإنجليز، وتشتيت قواتهم العسكرية، وإضعاف جنودهم في الجبهات الحربية المختلفة[2] كانت نية مترجمنا في الأصل أن يوجه جهده مع جهود زعماء الجهاد في ليبيا إلى القضاء على الاستعمار الإيطالي فيها[3]، بدل هذا التفكير الألماني التركي الذي كان يخطط لفتح المزيد من الجبهات، وقد كان الأتراك وفيهم وزير الدفاع أنور باشا نفسه مدفوعين من ألمانيا إلى هذه الحرب غير المتكافئة[4] والحق أن أحمد الشريف عارض هذا التوجه إلى حرب الإنجليز في مصر، ودافع بحجج مقنعة عن رأيه، ولكن في غمرة

(1) حاضرة العالم الإسلامي 2: 161.
(2) المرجع السابق 2: 146 ميلاد دولة ليبيا الحديثة 1: 122، 2: 795.
(3) م.ن 2: 146.
(4) م. ن 2: 146-150.

ذلك الهياج العسكري لم يطع له أمر ووجد نفسه مضطراً إلى خوضها مع جيشه السنوسي.

فقد أرادت ألمانيا وتركيا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى عام (1333هـ/1914م) أن تستغلا نفوذ الحركة السنوسية الواسع في ليبيا، وأن تستفيدا من شهرة قائدها السيد أحمد الشريف في مساعدتها لإحداث ثورة على حدود مصر الغربية التي يحكمها الإنجليز، لتحول الكثير من جيشها الرابض على قناة السويس[1]؛ فأرسلت إلى السيد أحمد زعيم السنوسية عدداً من القادة والشخصيات المهمة لإقناعه بضرورة المشاركة السنوسية في هذه الحرب، ومن هؤلاء القادة جعفر باشا العسكري، ونوري باشا أخ أنور، وسليمان الباروني، وعبد الرحمن عزام، وغيرهم[2]؛ وقد عمل هؤلاء جميعاً على إقناع مترجمنا بقصدهم، ولفته إلى أن تركيا أعلنت الجهاد على انجلترا وأن لا مندوحة له في ترك الجهاد، قال الأستاذ أمين سعيد: (وحمل نوري بك كتاباً خاصاً من أخيه أنور باشا إلى السيد أحمد يخبره فيه بإعلان الجهاد ويدعوه للاشتراك فيه، ويقول له: إن الخليفة عينه نائباً عنه في برقة، ومنحه حق إعطاء الرتب والنياشين)[3].

وهنا نجد أنفسنا أمام روايتين متضاربتين:

الأولى: يقول فيها المؤرخون: إن السيد أحمد الشريف بالرغم من معارضته لهذا الرأي الذي تبناه أنور وجماعة تشكيلاتي مخصوصة، وعمله على إقناعهم الملح بعدم جدوى هذه الحرب غير المتكافئة ضد الإنجليز، وجد نفسه —بعد أن دخلت هذه الجماعة في غمار الحرب دون أن تقيم لرأيه وزناً– مدفوعاً إلى خوض غمار هذه الحرب معهم[4].

(1) حاضر العالم الإسلامي 2: 147-150.
(2) م. ن.
(3) يراجع كتاب (حاضر العالم الإسلامي)، للوثروب ستودارد، تعليقات الأمير شكيب أرسلان.
(4) حوليات كلية الآداب جامعة الكويت الحولية الأولى 1980/1399/ ميلاد دولة ليبيا الحديثة 2: 795.

والرواية الأخرى تذهب إلى القول إنَّ السيد أحمد الشريف اقتنع بآراء هؤلاء القادة الذين أقنعوه بالجهاد، وجدوى حرب الإنجليز المستعمرين فاندفع إلى حشد قواته وحثهم على الجهاد، وخاض بهم المعركة في سيدي براني، والتي لم يكن فيها العدد والعدة متكافئين، فانتصر الإنجليز، وهزمت جماعة تشكيلاني مخصوصة، وتفرق الجيش السنوسي شدر مدر، وذاق الشيخ أحمد الشريف وقواته نتيجة هذا القتال غير المتكافئ أشد العذابات[1]، قال الأمير شكيب واصفاً ما أخبره به المترجم ((ثم سار السيد إلى سيوه، وتقدم إلى الواحات الدواخل على مسيرة سبعة أيام من سيوه نحو الفيوم؛ فجهز الإنكليز قوة عظيمة لقتاله؛ فاضطر أن يرجع أدراجه إلى سيوه؛ فتعقبوه إلى سيوه، فدافع عن نفسه في سيوه دفاعاً شديداً، ودحرهم وخرب عدداً من دباباتهم المصفحة، والطرابلسيون يسمونها بالكهربات- جمع كهرباء- لكونها تسير بالقوة الكهربائية-وبعد أن ارتد الإنكليز إلى الوراء، أزاح السيد من سيوه إلى الجغبوب، وهي مسيرة ثلاثة أيام، وتحصن بها))[2].

وبهذه الخاتمة السلبية انتهت حرب مترجمنا في سيدي البراني ضد الإنكليزي والتي حمل عليها- فيما نرجح- حملا، وأسهم في القتال فيها بنفسه بتوجيه من الألمان، وبالمشاركة الفعلية من قادة الأتراك من أمثال نوري باشا، وجعفر العسكري الذي أسره الإنجليز[3]. وفي تلك الأثناء ظهرت لابن عمه الأمير محمد إدريس بن المهدي السنوسي ومجلس الإخوان السنوسيين حيلة ناجحة في المناورة السياسية الذكية لصالح حركة الدعوة السنوسية، وذلك حينما رأى هذا الأمير ومجلس الإخوان أن ورقة الشيخ أحمد الشريف صارت باهتة وغير رابحة في عالم الواقع، وأن من الخير للدعوة السنوسية أن تظهر وجهاً آخر أكثر مرونة،وأقدر على التفاوض السلمي، للخروج بالحركة من الوهن والجمود والتقهقر، إلى طور استئناف الحياة ولا يتم ذلك إلا ببيعة للأمير محمد إدريس، وحمل السيد أحمد الشريف على الهجرة وترك البلاد،

(1) المرجع نفسه (حوليات كلية الآداب جامعة الكويت الحولية الأولى 1980/1399).
(2) حاضر العالم الإسلامي 2: 148.
(3) م. ن.

ليبرم الأمير المذكور الاتفاقيات والمعاهدات مع الإنجليز ومع الإيطاليين على حد سواء[1]. قال الأمير شكيب أرسلان-رحمه الله-(ولما رأى سيدي أحمد الشريف ذلك، وكان الوئام بين أبناء البيت السنوسي من القواعد المقدسة، لم يستحسن في باطنه خطة ابن عمه، ولكنه لم يشأ أن يجاذبه الحبل، وصبر على المر، وأرسل إلى المرحوم أنور ناظر الحربية يومئذ، وذلك في سنة 1918م، يطلب منه إرسال غواصة لنقله إلى الآستانة)[2].

وقد حدث الشيخ أحمد الشريف الأمير شكيب المذكور عن شدة المعاناة والعذاب التي لقيها مع أتباعه ومرافقيه وهم يقطعون الصحاري والبراري من الجغبوب إلى جالو وأوجلة ثم إلى سوكنه في ظروف قاسية من أهوال الطريق والجوع والعطش، وفقدان الرجاء والأمل في المخلوقين[3]، الذين كانوا يعتبرونه جميعا من زواياهم الخاصة عدوا لدوداً يستحق منهم المقاومة والتضييق والحصار؛ فمن الشرق العدو الإنجليزي في مصر- تقدم، ومن جهة الغرب المجاهد رمضان السويحلي وجماعته من أهل مصراته الذين كانوا يناصبون السنوسية العداء، وأيضاً الحكومة الإيطالية وقواتها التي كانت تحرص على الفتك به، وبجماعته المقاتلة معه.

حياته في خارج ليبيا:

نعني بحياة السيد أحمد الشريف السنوسي في خارج ليبيا المرحلة الزمنية التي تعد خمس عشرة سنة التي أمضاها في تركيا وسوريا وفي أرض الحجاز أي 1 من سنة هجرته سنة (1337هـ/1918م) إلى تاريخ وفاته -رحمه الله- سنة (1352هـ/1933م).

- هجرته إلى تركيا:

أي مدة مكثه في بعض المدن التركية التي أقام فيها بعد وصوله إليها من سنة (1337هـ/1918م) إلى سنة (1342هـ/1923م) ومن أبرزها هذه المدن التي سكنها: الآستانة وأنقرة وقونيه ومرسين وغيرها.

(1) حاضر العالم الإسلامي 2: 149. دليل المؤلفين العرب الليبيين: 71.
(2) م. ن 2: 114.
(3) م. ن 2: 149.

وسوف نعول في الحديث عن حياة مترجمنا السيد أحمد الشريف في تركيا على المسرد التاريخي الدقيق والأمين الذي كتبه أمير البيان شكيب أرسلان، الذي يعد المصدر الرئيس في التأريخ لهذه المرحلة التاريخية من حياة هذا المجاهد التي أقامها في تركيا، حيث كتب للأمير شكيب أن يلقى أحمد الشريف وأن يستقي صادق الأخبار من فمه، باعتباره من العلماء المؤرخين الذين شرفوا بلقائه ومعرفته وسجلوا جملة من أخباره وأحواله.

بدأت هذه الحياة، أو الهجرة من حياة أحمد الشريف كما دلت كتابات الأمير شكيب أرسلان بعدما أنفذ أنور باشا القائد المشهور أحمد بن شتوان[1] ممثل السنوسية في الآستانة بالغواصة التي طلبها أحمد الشريف من أنور لنقله إلى تركيا، فلقيه في مرسى العقيلة على ساحل خليج سرت، وأبلغه بموافقة أنور على مجيئه إلى الآستانة، فركب السيد أحمد الشريف وحاشيته الغواصة التي قصدت به بحر الادرياتيك، ومن طريف، بل من غريب ما أخبره به مترجمنا أحمد الشريف الأمير شكيب أرسلان قوله: (قبل ركوبي الغواصة تحادثت مع الضباط الألمان الذين فيها، وسألتهم عن خطر ركوبها، فقالوا لي: لا يخلو الأمر من الخطر، ولكنني ما باليت بذلك؛ لأنني كنت رأيت أستاذي سيدي أحمد الريفي في المنام، فقال لي: الشيء الفلاني ستأخذه من (بولا) ففي اليوم التالي سألت الضباط هل يوجد محل اسمه (بولا) فقالوا لي: نعم إن المرسى الذي سننزل فيه من بلاد النمسا اسمه (بولا)؛ فاعتقدت أننا بالغوا هذا المكان بحول الله وقوته)[2].

كذلك أخبرنا المترجم الأمير شكيب أرسلان بالأخطار والأهوال التي لقيها المترجم به ومن معه من ركاب الغواصة الألمانية التي حملته من مرسى العقيلة بسرت إلى مرسى (تريستا) في النمسا[3] ثم سافر منها بالسكة الحديد إلى فيينا ومهما يكن

(1) لعله أحد أبناء الشاعر المشهور أحمد بن شتوان، أو من أفراد أسرته. راجع أخبار هذا الشاعر المهاجر إلى تركيا في كتاب لمحات أدبية عن ليبيا : 49.

(2) حاضر العالم الإسلامي 2: 153.

(3) م.ن 2: 153، (3) ليبيا الحديثة 2: 512 .

من شيء فقد عبر مترجمنا السيد أحمد بن محمد الشريف،عن أوجاعه وأوصابه، بل عن الكثير من خيبات أمله فيمن عرف من الناس، خاض البحر الأبيض المتوسط نحو الشمال إلى أوروبا في رحلته المؤلمة الخاتمة، التي ترك فيها وطنه العزيز (ليبيا) مضطراً، والذي لم يعد إليه بعد ذلك، وأغدت به الغواصة السير إلى أن وصل وأصحابه إلى النمسا، ومنها ركب القطار إلى فيينا حيث شاهد من جمال الطبيعة في الطريق ما ملأ ناظريه بهجة، وأدخل على نفسه المكلومة الراحة والانفساح، ثم اتجه إلى الآستانة (إسطنبول) عاصمة الخلافة إلى ذلك الحين، حيث استقبل استقبالاً حافلاً وبهيجاً يليق بمقامه، وذلك بأمر السلطان العثماني محمد وحيد الدين، حيث كان في استقباله القائد أنور باشا، وكبار رجال الدولة العثمانية والأعيان نذكر من بينهم علي رضا شيخ الإسلام وأمين الفتوى وفؤاد بك مدير التشريفات وإحسان بك كاتب الديوان السلطاني، وهو المظهر الاحتفالي الذي سرَّى عن نفسه، وأدخل في أقطارها المسرة وروح الأمل.

ومن المصادفات السعيدة التي أبهجت روح السيد أحمد الشريف، بل غمرت نفسه بالسعادة، وأعلت من مقامه النفسي بعد ذلك الإحباط المرير، تزامن وجوده بل وصوله في تلك الرحلة التي خرج بها من وطنه مغموماً مع مناسبة سارة في البلاد العثمانية، هي جلوس السلطان المذكور على عرش آبائه وأجداده العثمانيين[1] وهي المناسبة التي اختاره فيها السلطان نفسه، ليقلده السيف الرمزي التقليدي في يوم جلوسه الحاشد، تقديراً لشرفه في النسب الطاهر، ولدوره العظيم في الجهاد ضد الطليان والإنجليز، ومن قبلهما الفرنسيس في أفريقيا فخف مترجمنا إلى النهوض بهذه المهمة في جامع الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري[2] وقد أنعم عليه في ذلك الحفل برتبة الوزارة السامية، وبالنيشان المرصع وبقى في الآستانة منعما مكرماً، حيث أنزلته الدولة بسراي (طوب قبو) مقر السلاطين القديم، وظل خلالها

(1) حاضر العالم الإسلامي 2: 154.
(2) م. ن 2: 154 .

مكنوفا بعناية السلطان والصدر الأعظم وأنور باشا وبعض الوزراء والعلماء إلى أن دخل الحلفاء إليها، فتحول منها إلى بروسه[1] (وقامت الحكومة العثمانية بكل ما يلزم له، وكان السلطان يديم السؤال عنه، وكلما تعين وال لبروسة يتلقى الأمر بالذهاب إلى السيد قبل كل شيء، والوقوف عند خاطره، والمبادرة إلى مراضيه)[4] وقد استمر وجوده في هذه المدينة ما يقرب من سنتين لقي فيها السيد أحمد الشريف من الخاصة والعامة صنوف الإجلال والتكريم، وكان مستقره خلالها محط التقدير والتجلة من الجركس والترك والكرد والأرناؤوط وغيرهم من قاصديه وطالبي دعواته وتوجيهاته، وآخذي الطريقة الإسلامية (السنوسية) التي كان ينشرها ويجيز بها.

ونظراً للانهيار السياسي الرهيب الذي كان من نتائجه ضعف الحكومة العثمانية في تركيا، وتقوّي دول الحلفاء، فقد آثر أحمد الشريف التحول إلى الأناضول، وأول بلدة رحل إليها، واستقر فيها منه (اسكي شهر) التي زاره فيها مصطفى كمال، كما عرضت عليه فيها الخلافة، فأفهم عارضيها ألاسبيل إلى قبوله إياها، ثم رحل منها إلى (قونيه) التي أقام فيها عدداً من الشهور ممتعا بالتكريم.

ولا يذهبن الوهم أو الظن بالقارئ الكريم إلى أن السيد أحمد الشريف أثناء ذلك المقام بتركيا قد استنام للراحة والاسترخاء، أو خلد إلى واحة التكريم والتنعيم ونسي القضايا الكبرى التي كانت تهيمن من قبل على عقله وحواسه والمتصلة بقضايا الوطن وقضايا الأمة والملة بعامة، فالذي أخبرت به صفحات تاريخ حياته في تركيا وفي الآستانة أنه كان شديد المراجعة لأنور باشا والسلطان في قضية مساعدة الدولة العثمانية للزعامات الوطنية الليبية في حربها ضد إيطاليا المستعمرة لوطنه، بل إنه فكر تفكيراً جدياً كما فكرت الدولة العثمانية في أثناء هذه الإقامة في أن يعود إلى ليبيا ليستأنف الجهاد والقتال من جديد ضد هذه الدولة الغازية، ولكن الظروف التاريخية والسياسية، وغلبة دول الحلفاء على حوض البحر الأبيض المتوسط هي

(1) (4) حاضر العالم الإسلامي 2: 155.

وحدها التي منعته من العودة الفعلية إلى وطنه، وإن ساعدته في طلب المزيد من العون والمساعدات من الدولة العثمانية لمجاهدي ليبيا[1] كما ساعدته أيضاً على الثبات على المبدأ الذي اعتقده وآمن به في وجوب استقلال وطنه ليبيا من الاستعمار الإيطالي البغيض في أثناء جهاده ضده في ليبيا، وأيضاً في أثناء هجرته إلى تركيا، يُستفاد ذلك من الخبر الذي ساقه الأمير شكيب أرسلان من أن كولونيلا (عقيداً) إيطاليا قد لحق به في مدينة أنقره، ولقيه، وتباحث معه في أمر حقن الدماء في ليبيا، والاتفاق بين الطرفين في الصلح فأجابه السيد أحمد (بأنه لا يكره الصلح على شرط استقلال وطنه الحقيقي)، وبعد مداولات جرت بين هذا العقيد والشيخ عبد العزيز جاويش[2] الذي كلفه السيد أحمد الشريف بالمفاوضات، أجاب مترجمنا العقيد ممثل الحكومة الإيطالية التي رأى مطالبها ظالمة ومجحفة وناضحة بالقهر والإذلال: (قل لهم لا نقبل أن تكون القوة العسكرية في أيديهم، ولا أن تكون الشرطة منهم، وكل ما نتسامح معهم فيه هو الامتيازات الاقتصادية، واستثمار البلاد حقاً لهم دون غيرهم من الأجانب، فأما حقوق الملكية؛ فلا ننزل عن شيء منها، وسلاحنا لابد أن يبقى في أيدينا، وعلى غير هذه الشروط فلا سلام ولا كلام، لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود بهما على الطليان، بل هما ملك أهلها)[3].

إنها وطنية الشيخ المجاهد أحمد الشريف السنوسي التي تعلي مقام الوطن وعزته وشرفه، ولا تتهاون في أعلائه أو في حفظ كيانه وكرامته، هذا على المستوى

(1) حاضر العالم الإسلامي 2: 145-157.

(2) أحد زعماء الحركة الإسلامية والوطنية في مضر في العصر الحديث وقد أشارت بعض المراجع إلى أنه يعود بنسبه إلى أسرة ليبية هاجرت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر إلى مصر واستقرت فيها، حيث ولد الشيخ عبدالعزيز هذا في مدينة الإسكندرية سنة (1876/1293) وتعلم في الأزهر وكلية العلوم، وعمل مدرسا وموجهاً، وانخرط في الحزب الوطني الذي تزعمه مصطفى كامل، وتولى رئاسة تحرير جريدة (اللواء) وشن حملات على الاستعمار الانجليزي، فسجن عدة مرات، ورحل إلى الآستانة فاصدر جريدة (الهلال) ومجلة العالم الإسلامي، وعرف بإسلامه وعثمانيته ووطنيته، وله مؤلفات عدة، وتوفي رحمه الله تعالى عام (1929/1347)؟

(3) حاضر العالم الإسلامي 2: 158.

الوطني الليبي، أما على مستوى العمل في القضايا القومية، والقضايا الإسلامية، فقد عهدت للسيد أحمد الشريف السنوسي جهود محمود ومشكورة في حل المشكلات الناجمة بين الحكومة التركية أو العثمانية ورعاياها ومواطنيها؛ إذ جدت أثناء إقامته بمدينة قونية في تركيا قضية الثورة على الحكومة التي كانت تعاني عهدئذٍ أزمات حادة من الخلفاء الذين اكتسحوا أراضيها[1] ((فحث الناس على اجتناب الفتنة، وبصرهم عواقب الشقاق، بينما العدو آخذ منهم بالخناق، وبين لهم كيف أن أنقرة هي ثمال الإسلام، وثمالة ما بقي في حوضه في هذه الأيام، فلا يجوز لهم والحالة هذه الخروج عليها، وتوهين قوتها، حتى لقد عاتبه كثيرون من أهل قونيه في تشيعه لأنقره، وغضب آخرون، ولولا احترامهم لمقامه العظيم، ونسبه الكريم، لمسه السوء يوم سالت الدماء في أسواق قونيه)[2] وقد قابل السيد أحمد الشريف مواقف هؤلاء الثائرين عليه وعلى الحكومة في أنقرة بالصفح بل بالإحسان حينما دهمتهم عساكر الدولة، وأعملت فيهم القتل والإبادة لولا تدخله بشرفه وبوجاهته عندهم، فأنقذ الكثير منهم بلطفه ووساطته.

ومن أعماله في هذه المرحلة التي أقام فيها في تركيا ذهابه السريع إلى ديار بكر التي أقام فيها وفي ماردين وفي باورفا، ونصحه للعرب والأكراد سكان هاتيك الديار بالهدوء والسكينة ومناصرة الدولة التي كانت تجابه أطماع دول الحلفاء[3]، وقد أخبرنا الأمير شكيب أرسلان أن سكان تلك الديار والمدن راودوه على الإقامةبينهم، وأظهروا له من الطاعة لأمره والانقياد لكلمته ما هو فوق الوصف، لكنه أبدى لهم استحالة ذلك عليه، وكونه مقيداً ببلاده لابد من الرجوع إل الغرب)[4].

(1) حاضر العالم الإسلامي 2: 157.
(2) م.ن 2: 156.
(3) م.ن 2: 157.
(4) م.ن.

ويبدو أن السيد أحمد الشريف السنوسي من خلال حكمه الظاهر على مصطفى كمال وأنور باشا ومنظمة تشكيلاتي مخصوصة لايزال يعلق الأمل عليهم جميعاً في نصرة الخلافة، ومقاومة دول الحلفاء فقد أخبر وهو في ماردين حسب رواية الأمير شكيب أرسلان (أن هجوم الأعداء سيبدأ بهذين اليومين، وسيكون نصيبهم الخذلان)[1] ولم يمض يومان على ما تنبأ به السيد أحمد الشريف حتى خاطبه الغازي ببرقية، أخبره فيها (أن العدو بدأ بالهجوم نسألك الدعاء)[2] فدعا لجيوش المسلمين بالنصر وبهزيمة الكافرين، فانتصر الأتراك، وهزم الحلفاء وكان ذلك كما قال الأمير شكيب (مدعاة لدهشة الضباط الأتراك)[3] الذين أذهلهم تنبؤه، كما أذهلتهم سرعة استجابة دعائه، وقد طلب الغازي مصطفى كمال أتاتورك من السيد أحمد الشريف قراءة صحيح البخاري، فذهب السيد إلى المسجد الجامع وشرع مع المسلمين في قراءته والتبرك به فكان سبباً لتلك الانتصارات، وأخرج العدو من جميع أجزاء أو أقسام تركيا[4] وهو ما ترتب عنه مجيء الغازي إلى وطنه، لزيارة أحمد الشريف في بيته بطرسوس، حيث احتفل به وبزوجته الخاتون احتفالا كبيراً[5]، ثم رحل مترجمنا إلى مدينة أنقرة ليعبر عن فرحه بهذه الحكومة المسلمة المنتصرة، قال الأمير شكيب: (وقد كان السيد في جميع زياراته لأنقرة يلقى من الغازي ومن هيئة الحكومة جميع ما هو أهله من الإجلال والإكرام)[6] ومن أسف أن هذا الإجلال والإكرام الذي كان يلقاه مترجمنا سرعان ما تغير بعد ذلك، حينما تغير الغازي في نظرته السياسية، وتبنى مبدأ العلمانية وعداوته الماسونية السافرة للإسلام وأهل

(1) حاضر العالم الإسلامي.
(2) م.ن.
(3) م.ن.
(4) م.ن 2: 157.
(5) م.ن.
(6) م.ن :2:158.

الإسلام، وحقده على الخلافة وأنصارها[1]، فضويق أحمد الشريف، وامتحن بأن أرسلت إليه الدولة مخبراً سرياً طلب منه أن يكتب له تزكية لحفيد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني واسمه (الشهزاده سليم) فخف الشيخ الشريف إلى كتابة هذه التزكية والتوصية ليلتحق بها بالجامع الأزهر في مصر، وما هي إلا مكيدة من رجال الاستخبارات ودولة مصطفى كمال، الذي قرر مع معاونيه اعتبار هذه التزكية خيانة عظمى للدولة الجديدة، فسارعوا إلى الطلب من السيد أحمد – بعد أن قطعوا مرتباته ومخصصاته– أن يغادر تركيا في ظرف زمني لا يتجاوز العشرة أيام[2]، فندم على ما كان منه من معاضدته لهذه الفئة الظالمة[3]، وسارع إلى حزم حقائبه، وعمل على الحصول على تأشيرة الدخول إلى سوريا لمدة محدودة.

2– في سوريا وفلسطين:

في الحق إننا لا ندري مدة الإقامة التي أقامها مترجمنا في سوريا، بل ليست لدينا معلومات دقيقة عن أسماء المدن والقرى التي غشيها من هذه الدولة بعد حلوله فيها، ويظهر أن هذه الإقامة كانت سرية، كما كانت محدودة في عدد أيامها، لما علم من حياة هذا الزعيم الليبي ودوره في محاربة دولة فرنسا التي هي الحاكم الفعلي لسوريا منذ سنة (1342هـ/1923م) وأغلب الظن أن السيد أحمد أقام في العاصمة دمشق، حيث التقى بطائفة من المهاجرين الليبيين الذين احتفلوا بقدومه، وأكبروا قيمته وجهاده، وأعلوا من منزلته في العالمين الظاهر والباطن، فاستجازوه وأجازهم، أخبرني شيخي محمد عبد الغني الباجقني وكان عهدئذ، وفي أثناء إقامة السيد أحمد الشريف هذه في دمشق في عداد طلبة العلم من أبناء المهاجرين الليبيين بالشام[4]

(1) براجع في ذلك كتاب (الذئب الأغبر) وكتاب (الأفعى في معاقل الإسلام) لعبد الله التل : 94-95، (تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا) لعلي الصلابي: 315.

(2) تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا: 317-319.

(3) يراجع كتاب "حاضر العالم الإسلامي".

(4) ترجمنا للشيخ محمد عبد الغني الباجقني رجمة وافية في هذا الكتاب.

أن الشيخ أحمد الشريف كان يقوم على نشر الطريقة السنوسية، وكان يجيز بها، وقد أجازه بإجازة ذكر أنه لا يزال يحتفظ بها في الثمانينيات من القرن الماضي.

بيد أن صاحب كتاب: (الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية) توسع إلى حد ما في ذكر بعض أخبار هذه الزيارة إلى سوريا، فذكر أن السيد أحمد الشريف نزل في دمشق ضيفاً على السيد سعيد الجزائري حفيد المجاهد عبد القادر الجزائري، وأن أهل الشام فرحوا بقدومه فرحاً عظيماً، إذ توافد عليه العلماء والأعيان والزعماء، وتبركوا بطلعته وببركته، واستمعوا لأحاديثه وخواطره، واستفادوا من دروسه وأفكاره الدينية السياسية[1]. كذلك أفاد صاحب (الفوائد الجلية) برحلة السيد أحمد الشريف السنوسية السريعة من دمشق إلى بيت المقدس في فلسطين تلك الرحلة التي استقبله فيها الشيخ محمد أمين الحسيني رئيس المجلس الأعلى الإسلامي، وذكر أن الإنجليز الذين كان قد حاربهم من قبل في السلوم لم ينسوا عداوتهم له، فضايقوه، وطلبوا منه الخروج السريع من القدس، في الوقت الذي سعى فيه مندوب أو ممثل إيطاليا في القدس إلى استغلال هذا الموقف، وعرض عليه العودة إلى ليبيا، وإبرام الصلح والاتفاقيات مع دولته المستعمرة، فلم يبد له السيد أحمد الشريف تجاوباً. ثم عاد إلى مهجره المؤقت سوريا في رعاية الأمير سعيد الجزائري، إلى أن قوي عليهما ضغط الحكومة الفرنسية في سوريا في وجوب الإسراع بخروج أحمد الشريف من هذه البلاد، مما ألزمه إلى اللجوء إلى القنصل البريطاني الذي ضيق عليه هو الآخر الخناق في الذهاب إلى مصر أو السودان أوالهند وغيرها، بل أخبره بعداوة دولته له بقوله إن: "كل بلد يعتليه العلم البريطاني، لا يمكن أن تدخلوه"[2].

3– في الحجاز:

عندما يئس السيد أحمد الشريف من الحصول على التأشيرة والموافقة على الذهاب إلى الحجاز للإقامة فيه من القنصل البريطاني المتعنت، اتصل صديقه السيد

(1) الفوائد الجلية: 318-319.

(2) م.ن ، نقلا عن كتاب (تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا) : 317-320.

سعيد الجزائري –بفضل وجاهته ومكانته– بمندوب الملك عبد العزيز آل سعود في دمشق الشيخ عبد العزيز الشقيحي، وعرض عليه أمل السيد أحمد الشريف الباقي في استجابة العاهل السعودي للسماح له بالدخول إلى الحجاز، بل إلى حرم الله المتمثل في الحرمين الشريفين، للمكث فيهما خلال المدة المتبقية من حياته؛ ومن أفضال الله عليه أن موافقة الملك عبد العزيز بن سعود على طلبه هذا، بعد أن أغلقت أبواب وطنه ليبيا، ومصر وسوريا والعراق وفلسطين لم تتأخر ولم تغلق في وجهه، بفعل الدوائر الأجنبية الغازية والمحتلة[1]. إذ كلفت حكومة الملك عبد العزيز سيارات سعودية بحمله من سوريا إلى المملكة السعودية، ودخل السيد أحمد الشريف ومن معه إلى حدود المملكة عن طريق نجد، ثم أخذت هذه السيارات تغذ به السير إلى أن بلغ مكة المكرمة–شرفها الله– في سنة (1343هـ/1925م) فاعتمر واستقر، وقر عيناً بما رأى، وسعد بما استقبل به إلى أن جاءته رسل الملك عبد العزيز فاحتفوا بقدومه، وشرعوا في الترحيب به، وإكرام وفادته وأبلغواه بعد ذلك بالإقامة في ضيافة ملك المملكة وإعظامه[2] فعاش في هذا الحرم الآمن في أجواء روحية طاهرة، يحسن الصلة بالله، ويتقرب إلى مقام جده رسول الله ﷺ، يقرأ القرآن، وينعم النظر في سنة جده المصطفى، ويجتهد في التسابيح وقراءة الطريقة السنوسية الصوفية، ويعمل على نشرها، بعيداً عن أجواء السياسة الحارقة التي كثيراً ما اكتوى بنيرانها في وطنه وفي مهجره، وظل على ذلك القرب الروحي، إلى أن أدركه مرض الوفاة.

وفاته وصداها في العالم الإسلامي:

انتقل السيد أحمد الشريف السنوسي إلى جوار ربه الكريم وهو يقيم في طيبة (المدينة المنورة–بعد رحلة حافلة بالجهاد والصبر والاحتساب والإعداد، وخدمة

(1) الفوائد الجلية: 2: 81.
(2) م.ن ، 2:88–120، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا :219–221.

الدين- وقضايا بلاد المسلمين في تمام الساعة الثامنة من يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ذي القعدة سنة 1351هـ، والعاشر من شهر مارس سنة 1933م)[1].

ودفن — رحمه الله تعالى- في مقبرة البقيع قرب قبر الإمام مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة- رضي الله عنهما.

وقد كان لوفاته ونعيه الصدى البعيد، والأثر المؤلم في بلاده ليبيا، وفي الأقطار العربية[2]، والدول الإسلامية أجمع، فقد كان -لعظم جهاده، وحسن توجيهه وإرشاده- علماً من أعلام الإسلام، وأبطال الجهاد، وقادة الأمة، ولذلك لا غرابة في أن تقام له حفلات التأبين في الديار الإسلامية المشرقية والمغربية، وأن تعنى صحف الشرق والغرب بذكر نعيه، والإشادة بمآثره في خدمة الإسلام والمسلمين.

وما كان عمرو موته موت واحد ولكنه بنيان قوم تهدَّما

ومن الكلمات البليغة التي كتبها الكتاب في رثاء السيد أحمد محمد الشريف والتنويه بجهاده كلمة الداعية الإسلامي الغيور الأستاذ محب الدين الخطيب، صاحب مجلة الفتح، والتي نشرها فيها في ع227، س7 (1351هـ/1933م).

آثاره العلمية:

لم يعرف الشيخ المجاهد أحمد الشريف السنوسي بآثاره المشهورة في وقائع الحرب الليبية الإيطالية، ونوازلها الشديدة، وأعداده لرؤساء الجهاد والمجاهدين، وحروبه الضارية ضد أعداء الله من المستعمرين الإيطاليين والإنجليز فحسب، بل عرفت له آثار قلميه في مجال التأليف والفكر يجب عدم إغفال ذكرها في هذه الترجمة ضمن تراجم أعلام ليبيا في القديم والحديث، فقد كان السيد أحمد الشريف كما قال الأمير شكيب أرسلان في تحليته: (سريع الخاطر، سيال القلم، لا يمل الكتابة أصلاً، وله عدة كتب)[3] نذكر من كتبه وتأليفه:

---

(1) حاضر العالم الإسلامي 2: 165، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا 321-328. ميلاد دولة ليبيا الحديثة 2: 851 874.

(2) ميلاد دولة ليبيا الحديثة 2: 850- 851 ، 874.

(3) حاضر العالم الإسلامي 2: 161.

1- **تاريخ السادة السنوسية وأخبار الأعيان:** ذكره الأمير شكيب أرسلان بهذا العنوان، وقال متحدثاً عن موضوعه هو (في تاريخ السادة السنوسية، وأخبار الأعيان من مريديهم، والمتصلين بهم) واستطرد فقال: (ينوي طبعه ونشره، فيكون أحسن كتاب لمعرفة أخبار السنوسيين)[1]. ومن أسف أن هذا الكتاب لم يطبع، كما أنه لم يدل على بقائه مخطوطاً.

2- **الدر الفريد الوهاج بالرحلة المنيرة من الجغبوب إلى التاج:** وسنعود إلى الحديث عن هذا الكتاب في فن الرحلة وعن طبيعة موضوعه، وأسلوبه بعد قليل.

3- **فهرست تراجم مشائخه، ومشاهير من اجتمع بهم من أهل المغرب**[2]: هكذا ورد العنوان، بينما اجتمع السيد أحمد الشريف بجماعات كثيرة من أهل المغرب، وأهل المشرق أيضا وهذا الفهرست -كما جاء في عنوانه- موظف لتراجم شيوخه وأساتذته الذين أخذ عنهم علمي الظاهر والباطن، وقد ذكرنا منهم في هذه الترجمة شيخه ووالده الشيخ محمد الشريف، وعمه السيد المهدي السنوسي، وشيخه أحمد الريفي والشيخ مصطفى المدني وجده وشيخه عمران بن بركة.

والفهرست أو هذا البرنامج حسب تسمية المغاربة والأندلسيين عمل علمي مفيد دون شك، ولو وصلنا بل لو وصل إلى الباحثين والدارسين لاستفدنا منه أسماء شيوخه الكثر الذين أخذ عنهم العلم في الجغبوب والكفرة، ممن تكونت بهم وبعلومهم ملكته العقلية، ووجدانه الديني والروحي، ولأمدنا منه أيضاً البرنامج العلمي الذي تلقى به تحصيله العلمي، وأسماء الكتب والمقررات التي أخذها عنهم، ولأفادنا أيضاً المزايا العقلية والنفسية في شخصيات أساتيذه وشيوخه، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن هذا الفهرست يفيدنا كما يفيد الدارسين من حيث رصد

(1) حاضر العالم الإسلامي 2: 161، وسمى في كتاب (دليل المؤلفين العرب الليبيين: 72 "الأنوار القدسية في تراجم السنوسيين" أو السادة السنوسية").

(2) دليل المؤلفين العرب الليبيين: 72.

أسماء مشاهير من اجتمع بهم السيد أحمد الشريف –على الأقل– من أهل المغرب من التوانسة والجزائريين والمغاربة والشناقطة وما استفاده منهم وما أفادهم به في الاجتماعات التي عقدها معهم.

4– الفيوضات الربانية:

ويظهر أن هذا الأثر من آثاره العلمية أثر من آثاره في التصوف أو علم الرقائق، وذكر المناقب والكرامات، أو أنه شرح لأذكار الطريقة السنوسية، وتفسير لتسابيحها وأورادها؛ فمن المعلوم أنه كما كانت للشيخ أحمد الشريف عناية بعلم الظاهر كانت له عناية مشابهة بعلم الباطن أو بعلم الأذواق.

الدر الفريد الوهاج بالرحلة المنيرة من الجغبوب إلى التاج:

هكذا وجدت العنوان مكتوباً على المخطوط المودع في المكتبة الظاهرية قديماً، والموجودة حالياً في مكتبة الأسد تحت رقم (8769) عام؛ وكتب تحت عنوانها "وضمنها رحلتان، أحداهما لجد المؤلف عمران بن بركة والمؤلف هو أحمد بن محمد الشريف بن محمد بن علي السنوسي الكبير، المتوفى سنة 1251هـ، الأعلام 1: 132[1].

أما السيد محمد الطيب الأشهب فقد ذكر للكتاب نفسه عنوانا آخر هو (السراج الوهاج في رحلة السيد المهدي من الجغبوب إلى التاج)[2].

وهذا الكتاب المنسوب لمترجمنا السيد أحمد الشريف السنوسي نسبة حقيقية، هو وصف للرحلة التي صحب فيها عمه الداعية، وزعيم الحركة السنوسية الثاني السيد محمد المهدي السنوسي من الجغبوب إلى مدينة التاج (الكفرة). قال الأستاذ الطيب الأشهب مؤرخاً زمن تأليف الكتاب وذاكرا إحدى تسمياته: (وفي طريقه إلى الكفرة، ألف السيد الشريف كتابه المسمى (السراج الوهاج في رحلة السيد المهدي من الجغبوب إلى التاج)[3] ثم أثنى على الكتاب بقوله: (وهو كتاب نفيس،

(1) مخطوط الدر الفريد الوهاج الورقة (1).
(2) برقة العربية: 250.
(3) م.ن: 250. المهدي السنوسي

يحوي أدق المعلومات، وفي شبه مذكرة عمومية لجميع ما يقع، وما تصل من أخباره، ويتناول فيه الكثير من سيرة جده السيد السنوسي الكبير، ولكنه مع الأسف لم يطبع)[1]. ومع اتفاقنا التام مع جميع ما ذكره الأستاذ الطيب الأشهب من انطباعات حول هذا الكتاب الذي ألفه السيد أحمد الشريف في أثناء الرحلة مع عمه من الجغبوب إلى التاج سنة (1319هـ/1901م)[2] إلا أننا نذكر بأن العنوان الآخر للكتاب هو ما وجدناه مكتوبا على المخطوط المذكور المودع في مكتبة الأسد أو الظاهرية بسوريا، ولسنا ندري من اختاره وكتبه، هل هو المؤلف نفسه، أو أحد النساخ الذين نسخوا الكتاب[3] وكتاب، بل مخطوط الكتاب (الدر الفريد الوهاج بالرحلة المنيرة من الجغبوب إلى التاج) الذي وقفنا عليه في المكتبة الأسدية، مكتوب في الغالب بالخط المغربي ويقع في اثنتي عشرة ومائة ورقة، بدايته قول المؤلف: (حمداً لمن جعل الظعن وصلة لجميع المقاصد، وخص بالأجرفيه من هو للخيرات قاصد)[4].

وخاتمته: (وكان الفراغ من تبييضه عشية يوم الاثنين ثمانية عشر ذي الحجة عام الثالث عشر بعد الثلاثمائة والألف من هجرة من له المجد والشرف، والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى، انتهى بحمد الله تعالى، وحسن عونه الجميل، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه مجمع الكرم والتفضيل وكان الفراغ من ذلك يوم الخميس ثاني يوم صفر الخير سنة الثمانية عشر.

وقد بدأ المؤلف الكتاب بذكر عمه السيد محمد المهدي السنوسي الزعيم الثاني للدعوة السنوسية، فأثنى عليه ثناء كبيراً، دلّ على إعجابه به، واعتقاده فيه[5]، وأيد ذلك بجلب قصيدة عينية من نظم جده الشيخ عمران بن بركة، وبقصيدة دالية

(1) برقة العربية: 250..

(2) م.ن.

(3) ورد في المخطوط ما يفيد أن المؤلف كتب العنوان في المخطوط (الدر الفريد الوهاج).

(4) يراجع أصل المخطوط، وفي مكتبتي الخاصة مصورة منه.

(5) مخطوط الدر الفريد الوهاج: الورقة 2.

للشيخ حسن وفا، وبأخرى لوالده الشيخ السيد محمد الشريف، وجميعها في مدح هذا الخليفة الثاني للحركة السنوسية ويبدو أن المؤلف استراح لهذا الاستهلال لكتابه بالشعر، فأثبت قصيدة دالية أخرى من نظم جده المذكور عمران بن بركة في مدح الزعيم الأول للحركة السنوسية الشيخ محمد بن علي السنوسي، وهي قصيدة مطولة.

ثم ذكر تعليل ذلك وتبريره فقال: (فعنّ لي أن أتبرك بتقييد هذه الرحلة السنية، ذات البركات القدسية، فأثبت ما يسر الله لي إثباته)[1] ثم ذكر التسمية الحقيقية لعنوان كتاب رحلته فقال: (وسميتها الدر الفريد الوهاج، بالرحلة المنيرة من الجغبوب إلى التاج)[2]، وبذلك قطعت جهيزة قول كلّ خطيب، فيكون هذا العنوان من وضع المؤلف نفسه، وهو —على الراجح– بديل للعنوان السابق.

كما ذكر بعد ذلك أن الكتاب هذا ليس مقصوراً على رحلته مع عمه من الجغبوب إلى التاج (الكفرة) فحسب، بل ضم إليه أيضا ما وصل إليه من (بعض رحلة الأستاذ الجد الأكبر ذي السر الأنور) يشير بذلك إلى رحلة جدِّه لأمه الشيخ عمران بن بركة وأيضاً ما انتهى إليه من رحلة أستاذه العم ووالده من مسقط رأسيهما إلى الحجاز ثم إلى الجغبوب)[3].

والرحلة مكتوبة بالأسلوب السهل القريب من الأسلوب المباشر المتضمن ذكر الأوصاف والمناقب والخالي من التوشية والتزيين، والتخييل والتلوين، والمواضيع وما حفلت به من نصوص شعرية، وأحداث تاريخية، تعد –دون ريب– مصدرا مهماً من مصادر الحديث عن الحركة السنوسية وأعلامها، وجوانب من الحياة الفكرية والثقافية في ليبيا ورجالاتها في القرن التاسع عشر الميلادي، زيادة على أهمية هذه الرحلة في التأريخ لسيرة مؤلفها وكاتبها السيد أحمد الشريف– رحمه الله تعالى. والتأريخ لفن الرحلة وكتبه وكتابه في الأدب العربي الحديث في البلاد الليبية.

(1) يراجع أصل المخطوط.
(2) م.ن : الورقة 2، 3.
(3) مخطوط الدر الفريد الوهاج، الورقة: الورقة 2، 3.